

## مقاومة الأمير عبد القادر

من هو الأمير عبد القادر:

ولد الأمير عبد القادر بن محي الدين في شهر ماي عام 1807 ببلدة القيطننة قرب مدينة معسكر. تعلّم عبد القادر القراءة والكتابة وهو في الخامسة من عمره، و في سن الثانية عشرة كان متمكنا من القرآن والحديث وأصول الشريعة، ولم يبلغ سن العشرين حتى كان قد طالع أمهات الكتب العربية في التاريخ والفلسفة واللغة والفلك والجغرافية، وحتى الكتب الطبية منها وكانت خزانة كتبه أحب مكان إلى نفسه، وكان إذا خرج إلى وادي الحمام أو غادر قريته إلى مدينة معسكر، حمل معه واحدا من هذه الكتب ليكون رفيقه في رحلته.

لم يكتف الشاب عبد القادر بتلقى العلوم الدينية والدينية بل اهتم أيضا بالفروسية وركوب الخيل وتعلم فنون القتال، فتفوق في ذلك على غيره من الشباب. وبذلك كان عبد القادر من القلائل جدا الذين جمعوا بين العلوم الدينية والفروسية، عكس ما كان عليه الوضع آنذاك إذ انقسم المجتمع إلى المرابطين المختصين في الدين والأجواد المختصين في الفروسية وفنون القتال.

لقد برز الأمير عبد القادر من خلال المقاومة التي قام بها في البداية الأولى للاحتلال بدءا من واقعة خنق النطاح الأولى بالقرب من وهران في 29 ماي 1832، والتي كانت بقيادة والده محي الدين، حيث كان من ضمن الصفوف المقاتلة في هذه المعركة، كما شارك في معركة خنق النطاح الثانية والتي قادها الأمير عبد القادر بنفسه نيابة عن والده، وفي هذه المعركة اتضحت معالم القائد السياسي والعسكري.

بعد هذه الأحداث اجتمع أهل الحل والعقد لاختيار من يصلح للإمارة ويكون بمقدوره تحقيق الأمن والاستقرار ومواجهة المحتل الفرنسي، فوقع الاختيار على محي الدين والد الأمير عبد القادر الذي رفض واعتذر لكبر سنه، وبعد إلحاح من أفراد قبيلته، اقترح عليهم ابنه عبد القادر لكي يكون أميرا عليهم، فقبلوا بذلك.

اتفق أهل الحل والعقد على تعيين عبد القادر أميرا عليهم، فأول من بايعه، والده على السمع والطاعة ودعا له، ثم لقبه بناصر الدين، وكذا بقية أسرته، ثم الأشراف والعلماء والأعيان والرؤساء حسب مراتبهم وطبقاتهم حيث بايعوه على ما بايعه عليه والده.

وتمت البيعة بوادي فريجة في سهل غريس تحت شجرة الدردارة التي كانوا يجتمعون إليها للشورى، بتاريخ 27 نوفمبر 1832. أما البيعة العامة فكانت بتاريخ 4 فيفري 1833.

وقد تمت بيعة عبد القادر أميرا، وحمل لواء الجهاد، من طرف القبائل على هذه الصيغة: «... بايعناه على السمع والطاعة، وامتنال الأوامر، ولو في الواحد منا أو في نفسه، وقدمنا نفسه على أنفسنا وحقه على حقوقنا».

ولقد مرت مقاومة الأمير عبد القادر بمرحلتين حاسمتين، الأولى شهدت انتصارات الأمير عبد القادر وقوة المقاومة، أما المرحلة الثانية فهي على العكس، عرفت تقهقرا وتضععا انتهى باستسلام الأمير عبد القادر عام 1847.

### المرحلة الأولى 1832-1837:

ما إن انتصب عبد القادر أميرا، حتى بادر بتنظيم أمور الدولة، فأسس مجلسا للوزراء ومجلسا للشورى، وشرع في تكوين جيش جزائري وفي إنشاء مؤسسات وفي وضع قوانين مستمدة من تعاليم القرآن الكريم، وسك عملة باسمه، وقسم البلاد إلى ولايات ونصب على كل ولاية خليفة، وقد اتضحت ملامح هذه المقاطعات عام 1837 أي بعد عقد معاهدة التافنة.

من البداية وضع الأمير عبد القادر برنامجا سطره للمقاومة وإرساء قواعد دولة إسلامية مستقلة، تمثل هذا البرنامج في:

- تحقيق الأمن، والقضاء على الخونة والمأجورين.

- توحيد القبائل حول مبدأ الجهاد.

- مقاومة الاحتلال الفرنسي بشتى الطرق والوسائل.

- إرغام الفرنسيين ودفعهم للاعتراف بالجزائر دولة مستقلة، وبعبد القادر أميرا عليها.

بدأت المواجهات بين الأمير عبد القادر والإدارة الفرنسية بمحاصرته لوهران ومستغانم، وهذا ما أرغم الفرنسيين على الاعتصام داخل القلاع والحصون، وبعد فشل بوايي في إفشال الحصار عزل وعين مكانه ديمشيل، الذي فشل بدوره في التصدي للأمير عبد القادر، فطلب الصلح وعقد هدنة مع الأمير عبد القادر بتاريخ 26 فيفري 1834، هذه المعاهدة تضم ستة بنود مكتوبة على أعمدة متوازية بالعربية والفرنسية، قد وقعها وختمها الطرفان، بالإضافة إلى النص العربي الثاني السري والذي يحمل ختم الأمير عبد القادر وديمشيل معا، حيث يتم بموجبه احتكار تصدير الحبوب واستيراد الأسلحة، وهذا ما يلام عليه ديمشيل فيما بعد ويتسبب في إقالته.

كان من نصوص هذه المعاهدة:

- 1- وقف المعارك بين الطرفين وتبادل الأسرى.
- 2- احترام الفرنسيين للمسلمين ومناطق سكناهم.
- 3- لا يدخل أي طرف أرض الطرف الآخر إلا بإذن من قنصله لدى الطرف الآخر.
- 4- يحق للأمير شراء الأسلحة وكل ما يحتاج إليه من المواد الحربية، وأن يكون ميناء أرزيو تحت سلطة الأمير.

5- أن يبقى الفرنسيون في وهران و مستغانم ويحترموا المسلمين.

كانت هذه محاولة من السلطة الفرنسية لكسب الوقت وإعداد العدة لهجوم جديد على الأمير عبد القادر، لكنها في الوقت نفسه خدمت الأمير عبد القادر بدوره فهو لم يتمكن بعد من تأسيس جيش وطني قوي، فرغم كثرة جنده والذي كان حوالي 60000، إلا أنه لم يكن نظاميا فمعظمه من المتطوعة، زد على ذلك لا يمكن جمع هذا الجيش في وقت واحد لأنه موزع بين القبائل المنتشرة هنا وهناك.

عزل ديمشيل من قيادة وهران في 15 جانفي 1835، وعين خلفا له الجنرال تريزيل في 20 جانفي 1835. وهذا بعد عملية تحقيق أجرتها السلطة الفرنسية بعد أن شككت في ولاء ديمشيل وحول إبرامه معاهدة سرية مع الأمير عبد القادر مما يهدد السيادة الفرنسية.

نقض تريزيل المعاهدة المبرمة مع الأمير عبد القادر، وألب قبائل الدوائر والزمالة على الأمير عبد القادر فتجدد القتال في 2 جويلية 1836، ومني تريزيل بهزيمة كبيرة في معركة المقطع.

كانت الإدارة الفرنسية تواجه مقاومة قوية من طرف الأمير عبد القادر في الغرب وكذلك مقاومة لا تقل عنها في الشرق وهي مقاومة أحمد باي، لذلك قررت أن تتفرغ كلية لواحدة قبل أن تعود للأخرى، لذلك ولّت الجنرال بيجو على الغرب الجزائري، وقد دخل هذا الجنرال عام 1837 في مفاوضات مباشرة مع الأمير عبد القادر، انتهت بتوقيع معاهدة التافنة في 30 ماي 1837، وضمت 15 مادة، وفي مجملها تدعم وتعترف بسيادة الأمير على ثلثي القطر الجزائري، كما أقرت بتبادل القناصل مثل: القبطان دوماس من طرف فرنسا لدى الأمير بمعسكر (1837-1839)، وكذا الإيطالي جرافاني قنصل أمريكا بالجزائر الذي عين لتمثيل الأمير لدى السلطات الفرنسية في 12 أكتوبر 1837.

## المرحلة الثانية 1839 - 1847:

بادر المارشال فالي إلى خرق معاهدة التافنة بعبور قواته الأراضي التابعة للأمير، فتوالت النكسات خاصة بعد أن انتهج الفرنسيون أسلوب الأرض المحروقة، كما هي مفهومة من عبارة الحاكم العام المارشال بيجو " : لن تحرثوا الأرض، وإذا حرثتموها فلن تزرعوها ، وإذا زرعتموها فتحصدوها "... فلجأ الفرنسيون إلى الوحشية في هجومهم على المدنيين العزل فقتلوا النساء والأطفال والشيوخ، وحرقوا القرى والمدن التي تساند الأمير.

وبدأت الكفة ترجح لصالح السلطة الفرنسية بعد استيلائها على عاصمة الأمير تاقدامت 1841 ثم سقوط الزمالة -عاصمة الأمير المتنقلة- سنة 1843 وعلى إثر ذلك اتجه الأمير إلى المغرب في أكتوبر عام 1843 الذي ناصره في أول الأمر ثم اضطر إلى التخلي عنه على إثر قصف الأسطول الفرنسي لمدينة طنجة والصويرة، وتحت وطأة الهجوم الفرنسي يضطر السلطان المغربي إلى طرد الأمير عبد القادر، بل ويتعهد للفرنسيين بالقبض عليه. الأمر الذي دفعه إلى العودة إلى الجزائر في سبتمبر 1845 محاولاً تنظيم المقاومة من جديد.

## استسلام الأمير:

في 23 ديسمبر 1847 سلم الأمير عبد القادر نفسه بعد قبول القائد الفرنسي لامورسير بشروطه، ونقله إلى مدينة طولون، وكان الأمير يأمل أن يذهب إلى الإسكندرية أو عكا كما هو متفق عليه مع القادة الفرنسيين، ولكن أمله خاب ولم يف الفرنسيون بوعدهم ككل مرة، عندها تمنى الأمير الموت في ساحة الوغى على أن يحدث له ذلك وقد عبّر عن أسفه هذا بهذه الكلمات " لو كنا نعلم أن الحال يؤدي إلى ما آل إليه، لم نترك القتال حتى ينقضي الأجل ". وبعدها نقل الأمير وعائلته إلى الإقامة في "لازاريت" ومنها إلى حصن "لامالغ" بتاريخ 10 جانفي 1848 ولما اكتمل عدد المعتقلين من أفراد عائلته وأعوانه نقل الأمير إلى مدينة "بو PAU" في نهاية شهر أفريل من نفس العام، ليستقر بها إلى حين نقل إلى أمبواز في 16 أكتوبر 1852.